الفصل الثالث

ذكر بعض الأنواع والمجالات التي يتكاثر فيها الناس ولا سيما في زماننا اليوم

سبق بيان أن التكاثر في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، تفاعل من الكثرة، أي مكاثرة بعضكم لبعض، وهو أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وقد أطلق الله سبحانه هذا التكاثر، ولم يعين في الآية ما يحصل التكاثر فيه، بل أعرض عن ذكره إرادة لإطلاقه وعمومه، ليدخل تحت المتكاثر به كل ما يكاثر به العبد غيره. وأن كل ما سوى طاعة الله ﷻ، وما يعود عليه نفعه يوم معاده هو داخل في هذا التكاثر، سواء كان ذلك في مال أو جاه أو رئاسة أو نسوة أو علم وحديث، وغير ذلك مما يراد به الدنيا، وهذ كله مذموم، إلا ما يقرب إلى الله ﷻ، فإن التكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها، وهذا مرغب فيه، قال الله ﷻ عن نعيم الآخرة ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦][1].

وفي هذا الفصل سأذكر إن شاء الله تعالى بعض ما يتكاثر به الناس -وما أبرئ نفسي- ولا سيما في واقعنا المعاصر الذي لم يشهد تاريخ المسلمين تكاثرًا مثله في كمه وكيفيته، حتى أصبح سمة بارزة لزماننا، ولم يسلم منه أحد، إلا من رحم الله ﷻ، وقليل ما هم.

---

(١) انظر الفوائد لابن القيم ص٣٠- ٣١.

ومن أبرز هذه الأشياء التي يتكاثر بها الناس اليوم حتى أشغلتهم عن الموت الذي سيفجؤهم بغتة، ويزيرهم المقابر، ويحول بينهم وبين ما كانوا يتكاثرون فيه ما يلي:

أولًا: التكاثر في الأموال نقدًا وعينًا

قال الله ﷻ: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقد سبق تفسير هذه الآية في فصل سابق، والمقصود بيان أن من أبرز ما يتكاثر فيه الناس في القديم والحديث إنما هو في الأموال والأولاد والأنساب، حيث نجد التنافس المسعور على هذه الدنيا، وسعي كل إنسان أن يكون أكثر مالًا وخدمًا وأولادًا، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٥].

والمال قد يكون نقدًا، وقد يكون عينًا كالعقار والمساكن والأثاث والمراكب والمزارع، وإن المتأمل اليوم في واقعنا المعاصر، ليرى هذا التنافس المحموم بشكل جلي، عم الرجال والنساء والصغار والكبار، وأصبحنا نسمع ونرى من لا يقنع برصيده الكبير من المال، بل يسعى جاهدًا إلى مضاعفته، ليكون أكثر من غيره، كما يسعى إلى سكن

ومركب أرفه من غيره، مع أنه قد يعيش في سكن واسع وله مركب حسن.

وقد بلغت حمى هذا التكاثر إلى الرجل الفقير، فنراه يسعى لتحميل نفسه من القروض والديون ليكاثر غيره في مركب أو مسكن أو ملبس!! وقد يكون اقتراضه بالربا.

فما أخطر هذا البلاء الاجتماعي الذي أصبنا به، وذلك بالتوسع في الدنيا والتكاثر فيها ولو بالديون، ولو بالقروض المحرمة. وأذكر أن قابلت أحد الإخوان الذين يظهر عليهم سمت الاستقامة والتدين، فسألته عن أحواله فأخبر بأنه في حالة حسنة، فله دخل جيد وسكن وسيارة، وليس عليه ديون، ولكنه قال: إنه يسعى للحصول على قرض كبير، فقلت له: ما حاجتك إلى القروض؟ فأخبرني بأنه يريد المساهمة به في مشروع تجاري مربح، فتعجبت من صنيعه هذا، ونصحته بأن يحمد الله ﷻ على الكفاية وحسن الحال وعدم الديون، وأن يحذر من التكاثر في المال بتحميل نفسه من الديون بما هو في غنى عنه ولا حاجة له فيه، وقلت له: من يوفي عنك دينك إذا مت، ولا سيما أن لا حاجة لك في الدين، إلا مجرد التكاثر وزيادة رصيد أموالك.

وأمثال هذا الأخ كثير وكثير، ولا سيما بعد انتشار شركات الأسهم، والاكتتاب فيها والبيع والشراء فيها، نسأل الله العافية والسلامة.

وإن الناظر إلى مساكننا اليوم وما فيها من الترف والزخارف والإنفاق في جمالياتها وكمالياتها وكثرة منازلها وارتفاع بنيانها والتطاول فيها، ليرى مصداق قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، لأن أكبر دافع لذلك هو التنافس والتفاخر مع الآخرين ومسايرتهم.

قال في روح المعاني: (عن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: (كنت وأنا مراهق أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان رضي الله عنه، فأتناول سقفها بيدي، وهدمها عمر بن عبدالعزيز بعد موت أزواجه عليه السلام وأدخلها في المسجد. قال بعضهم: ما رأيت باكيًا أكثر من ذلك اليوم، وليتها تركت ولم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء، ويرضون بما رضي الله لنبيه عليه السلام، ومفاتيح خزائن الأرض بيده عليه السلام. أي فإن ذلك مما يزهد في التكاثر والتفاخر في البنيان[1].

أما حين تأتي إلى الأثاث والترف فيها فحدث ولا حرج عن الانفاق الزائد في توفيرها، وكثير منها يمكن الاستغناء عنه، ولكنه التكاثر والتنافس في متاع الحياة الدنيا.

ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على حياتنا، ليظهر لنا ذلك الترف العظيم، والتنافس الخطير، والاستكثار المحموم فيها، لا للحاجة،

(١) روح المعاني ٤/ ٢١١.

ولكـن لمجرد الترف فيها. قـال في قوت القلوب (من الزهد أن يكون الشيء الواحد يستعمل في أشياء كثيرة، كذلك كانت سيرة السلف في الأثـاث وهو التقلل. كما أن أبناء الدنيا يستعملون للشيء الواحد أشياء كثيرة وهو وصف التكاثر، وذلك من أبواب الدنيا)[1].

ثانيًا: التكاثر في الأولاد والأنساب:

وهـذا أمـر مشـاهد لا يحتـاج إلى مزيـد تمعـن ونظـر، ولا سـيما الأنسـاب والتكاثر فيها والتفاخـر بها، وهذا مصداق قوله ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»[2].

وقد سـبق في تفسير سورة التكاثر ذكر المعنى الآخر لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾، وذلـك أن التكاثـر بلـغ بالمشركـين إلى أن ذهبوا إلى المقابـر، وتكاثـروا، وتفاخروا بمـن فيها من الأمـوات من آبائهم وأجدادهـم المقبوريـن، وكانـت هـذه الحالـة معروفـة عندهـم ولهـا محكمون!!.

(١) قوت القلوب ١/ ٤٢٧.
(٢) مسلم (٩٣٤).

والتفاخر والتعاظم بالآباء والأجداد من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية عند أهل الجاهلية، حيث كان بعضهم يفخر على بعض بالسيادة والشرف والكثرة والحسب والنسب، حتى إنهم ينطلقون في بعض الأحيان إلى القبور، ويشيرون إلى القبر بعد القبر ويقولون: فيكم مثل فلان ومثل فلان؟ وفي ذلك قال بعض المفسرين: إن في ذلك نزل قوله تعالى ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ ولكن سبب النزول هذا مرجوح.

ومثل هذا في واقعنا المعاصر ما تقوم به بعض القبائل من اجتماع سنوي لكل المنتسبين لهذه القبيلة أو تلك، ويكون فيه من المدائح والثناء على القبيلة ورموزها ووجهائها والتفاخر بذلك، ومثل ذلك أيضًا ما انتشر عن بعض العوائل بما يسمى بشجرة العائلة، وإن كان هذا في حد ذاته لا بأس به لو اقتصر على معرفة نسب العائلة والمنتسبين إليها من آباء وأجداد وأبناء وأحفاد، لكنه تجاوز ذلك إلى الافتخار بهذه الشجرة، والتعصب لها، وإبرازها في المجالس للزائرين والضيوف والتباهي بها، والتكاثر بالمنتسبين إليها، وتكاثر كل أب بما تحته من أولاد في هذه الشجرة. ومما له صلة بهذا تكاثر كثير من أبناء هذه القبيلة أو تلك بمواشيهم من الإبل والغنم، وذلك فيما يسمونه (مزايين الإبل والغنم)، حيث يتفاخرون بها، ويتكاثرون، ويغالون في أثمانها بمئات الألوف والملايين.

ثالثًا: التكاثر بالجاه والشهرة والرئاسات والشهادات والمناصب

وهـذا النوع مـن التكاثر يعد أخطـر على المرء مـن التكاثر بالمال والولـد، ولا سـيما إذا كان طلب الجاه والشـهرة بالعلـم والدين، كما جاء في حديث سـابق: «**ما ذئبان جائعان أُرسِـلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[1].

يقـول الإمـام الزهري رحمه الله: (ما رأينا الزهـد في شيء أقل منه في الرئاسـة، وتـرى الرجل يزهد في المطعم والـشراب والمال، فإذا نوزع الرياسة حامى عليها وعادى)[2].

«فكـما أن المـال: ملك الأعيان المنتفع بها، فـإن الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها، والتصرف فيها من تحصيل المنزلة في قلوب الخلـق، وهـو اعتقاد القلوب نعتًا من نعوت الكمال في هذا الشـخص، إما من علم أو عبادة أو نسب أو منصب أو شهادات أو قوة أو إعانة أو حسن صورة أو غير ذلك، مما يعتقد الناس كمالًا؛ فبقدر ما يعتقدون له من ذلك تذعن قلوبهم لطاعته ومدحه وخدمته وتوقيره.

والحقيقـة أن هذا اللون من المكاثرة أشـد فتكًا وأعظم خطرًا من المكاثـرة بالأمـوال والأولاد، ممـا يدخل تحت النـوع الأول؛ ذلك أن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سير أعلام النبلاء. ٧/ ٢٦٢.

أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس وحب مدحهم؛ فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس رجاء المدح وخوفًا من الذم؛ وذلك من المهلكات.

ولا يخفى أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغولًا بالتردد إليهم والمراءاة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتًا إلى ما يعظم منزلته عندهم، ويقتنص به قلوبهم!! وهذا جذر النفاق وأصل الفساد[1]».

رابعًا: التكاثر بالأتباع والشيوخ

وهذا النوع من التكاثر منشؤه من حب الشهرة والثناء والمباهاة، وهذه أمراض وآفات ومهلكات، وينتشر هذا النوع من التكاثر غالبًا في أوساط العلماء وطلاب العلم، حيث نجد منهم من يذكر كثرة طلابه وأتباعه والمتأثرين به، وكثرة المتابعين له في أجهزة التواصل اليوم، أو كثرة شيوخه، ولا سيما المشهورين منهم، ولو أنه لم يلتق به إلا مرة واحدة، ومن علامات هذا التكاثر: محبة الاجتماع حوله، وزهوه بكثرة الأتباع والدارسين، وتوقيرهم له، وخدمتهم له. ويفرح إذا عظمت حلقة الدرس عنده، وكثر متابعوه في التواصل. ويضيق ويتبرم إذا قل عدد الدارسين عنده أو انتقلوا إلى غيره، ويردد على

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين ص٢١١، ٢١٢.

لسانه ذكر دروسه وكثرة من يحضرها، وقوله: هذا من طلابي، وهؤلاء طلابي، والمتابعين لي في التواصل الاجتماعي بالآلاف والملايين!!

قال ابن الجوزي رحمه الله: (ومنهم - أي العلماء وطلاب العلم - من يفرح بكثرة الأتباع، ويلبس عليه إبليس أن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم، وإنما مراده كثرة الأصحاب واستطارة الذكر، وينكشف هذا بأنه لو انقطع بعضهم إلى غيره ممن هو أعلم منه ثقل ذلك عليه!! وما هذه صفة المخلص في التعليم، لأن مثل المخلص مثل الأطباء الذين يداوون المرضى لله سبحانه وتعالى، فإذا شُفِيَ بعض المرضى على يد طبيب منهم فرح الآخر)[1].

وقد كان السلف الصالح يتوقون هذه المزالق أشد التوقي، ويتحاشون الوقوع فيها.

فعن سليم بن حنظلة قال: أتينا أبي بن كعب رضي الله عنه لنتحدث إليه، فلما قام قمنا ونحن نمشي خلفه، فرهقنا عمر، فتبعه فضربه بالدرة!! قال: فاتقاه بذراعيه. فقال: يا أمير المؤمنين ما نصنع؟! قال: أو ما ترى؟! فتنة للمتبوع، مذلة للتابع)[2].

---

(١) تلبيس إبليس ص١٣١.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ١٠٧.

وعن علي رضي الله عنه قال: (يا حملة القرآن اعملوا به، فإن العالم من عمل بما علم، ووافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يجلسون حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا، حتى إن أحدهم ليغضب على جليسه حين يجلس إلى غيره ويدعه. أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله)[1].

ولما مشوا خلف علي رضي الله عنه قال: (كفوا عن خفق نعالكم، فإنها مفسدة لقلوب نوكى الرجال)[2].

وخرج ابن مسعود رضي الله عنه من منزله فتبعه جماعة فالتفت إليهم وقال: علام تتبعوني؟ فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجلان.

وفي بعض الروايات قال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، قال: ارجعوا؛ فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[3].

وكان أبو العالية رحمه الله إذا عظمت حلقته قام وانصرف، كراهة الشهرة[4].

---

(١) كنز العمال (٢٩٤١٩).
(٢) كنز العمال ٣/ ٨٣٠. (ونوكى الرجال) أي الحُمُق منهم.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٢٠.
(٤) تهذيب الكمال ٨/ ١٧٠.

وقال شعبة: ربما ذهبت مع أيوب السختياني لحاجة فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من ها هنا وها هنا، لكي لا يفطن له[١].

وكان الإمام أحمد رحمه الله إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد، وكان يقول: أشتهي مكانًا لا يكون فيه أحد من الناس[٢].

وعن الحسن رحمه الله: (لا تغرنك كثرة من ترى حولك؛ فإنك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك)[٣].

وقال الأعمش: (جهدنا بإبراهيم حتى نجلسه إلى سارية فأبى)[٤].

وكان الحارث بن قيس الجعفي يجلس إليه الرجل والرجلان فيحدثهما فإذا كثروا قام وتركهم[٥].

وكان محمد بن سيرين إذا مشى معه الرجل قام، فقال: ألك حاجة؟! فإن كانت له حاجة قضاها، وإن عاد يمشي معه قام، فقال: ألك حاجة؟![٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٥.
(٢) الآداب الشرعية ٢/ ٩٢.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ١٥٥.
(٤) الزهد لابن المبارك ١/ ٣٨٩.
(٥) تهذيب الكمال ٥/ ٢٧٣.
(٦) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٣.

قال إبراهيم النخعي: إياكم أن توطأ أعقابكم[1].

قال عبدالرحمن بن مهدي: كنت أجلس يوم الجمعة فإذا كثر الناس فرحت، وإذا قلوا حزنت، فسألت بشر بن منصور، فقال: هذا مجلس سوء، فلا تعد إليه! فما عدت إليه!![2].

خامسًا: التكاثر بالعلم والكتب

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (... فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولا سيما إذا لم يحتج إليه. والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها)[3].

والمكاثرة بالعلم والكتب لها صور كثيرة من أهمها:

(أ) التكاثر باقتناء الكتب بطبعاتها المختلفة والمكاثرة بتأليفها وتكبيرها:

لا شك أن اقتناء كتب العلم لمن يستفيد منها من العلماء وطلاب العلم أمر مطلوب، وفيها من الفائدة والنفع ما لا يخفى، ولكن إذا تحول هذا الاقتناء إلى مكاثرة ومفاخرة ومباهاة مع قلة الاستفادة

(١) سنن الدارمي ١/ ١٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢.
(٣) الفوائد ص٣٠.

منها، فهذا هو الأمر المذموم، وهذا هو الذي يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. ومن ذلك التكاثر باقتناء المخطوطات بأنواعها المختلفة من غير استفادة منها في تحقيق أو دراسة.

ومن ذلك كثرة التأليف في أمور لا فائدة فيها: مكررة، ونفخ الكتب بكثرة الهوامش والمقدمات والتراجم والمباهاة بكثرة المراجع في خاتمة الكتاب. ومن ذلك التكاثر بزخرفة الكتب، والمكاثرة بتقريظ بعض المشائخ أو طلاب العلم لها وثنائهم عليها، وملأ جلدة الكتاب بها، حتى لا تكاد تجد فيها فراغًا، وكأنها من صفحات الكتاب الداخلية.

يقول الشيخ عبدالكريم الخضير حفظه الله تعالى في معرض جواب له عن سؤال: كيف يبني طالب العلم مكتبته؟

(لا يخلو عالم أو طالب علم من مكتبة، لأنه لا يمكن أن يستغني عن الكتب، حتى زاد هذا الاهتمام ووصل إلى حد التكاثر والتفاخر. في (نفح الطيب) للمقري في وصف قرطبة قال: وهي أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب. صار ذلك عندهم من آلات التعين والرئاسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة، يحتفل ويهتم أن يكون في بيته خزانة كتب، وقد يكون لا يقرأ ولا يكتب، وينتخب فيها ليس إلا أن يقال: فلان عنده خزانة كتب، الكتاب الفلاني لا يوجد إلا عند فلان، ليس هو عند

أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به[1].

فصارت المسألة تفاخرًا وتكاثرًا... إذا وصل جمع الكتب والعناية بها إلى هذا الحد صارت مما يلهي ويشغل عن تحصيل العلم والعمل الصالح، فيدخل دخولًا أوليًّا في قول الله ﷻ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، لأنه مجرد تكاثر، هذا وجد في المتقدمين والمتأخرين....

على الإنسان أن يكون متوسطًا في أموره كلها، ما يحتاجه من الكتب يقتنيه وما ينفعه عند المراجعة، أما أن يجمع كل كتاب يسمع عنه يحتاجه أو لا يحتاجه، ليقال: إن عنده من كل كتاب نسخة. فهذه مصيبة!! إن الفائدة من جمع الكتب تحصيل العلم الشرعي، والعلم الشرعي من أمور الآخرة المحضة التي لا يجوز التشريك فيها. فإذا دخلت النوايا مثل هذه المقاصد، ليقال: إن عند فلان مكتبة أو عنده أكبر مكتبة خاصة. فهذه حقيقة مرة، وقدح ظاهر في الإخلاص، وإن وجدت عند بعض المتعلمين نسأل الله السلامة والعافية[2].

(ب) التكاثر والمباهاة في طلب العلم، ولا سيما الفقه منه والحديث، والمباهاة بمعرفة دقائقها وغرائبها

يقول الغزالي رحمه الله تعالى عن أصناف الناس في طلب العلم:

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤٦٢.

(٢) انظر أرشيف ملتقى أهل الحديث ٣٩/ ٣٥٩- ٣٦١ في المكتبة الشاملة.

(واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال:

رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة؛ فهذا من الفائزين.

ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالم بذلك، مستشعر في قلبه ركاكة حاله وخسة مقصده، فهذا من المخاطرين، فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة، وبقي أمره في خطر المشيئة؛ وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل، وأضاف إلى العلم العمل، وتدارك ما فرط منه من الخلل - التحق بالفائزين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان؛ فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل، رجاء أن يقضي من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة، لاتسامه بسمة العلماء، وترسمه برسومهم في الزي والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهرًا وباطنًا.. فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين، وهو غافل عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وهو ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «**أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال**»، فقيل: وما هو يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «**علماء السوء**»[1]. وهذا لأن الدجال غايته الإضلال، ومثل هـذا العالم وإن صرف الناس عن الدنيا بلسـانه ومقاله، فهو دافع لهم إليها بأعماله وأحواله، ولسـان الحال أفصح من لسـان المقال، وطباع النـاس إلى المسـاعي في الأعمال أميـل منها إلى المتابعـة في الأقوال؛ فما أفسـده هـذا الغرور بأعماله أكثر ممـا أصلحه بأقواله، إذ لا يسـتجرئ الجاهـل على الرغبـة في الدنيا إلا باسـتجراء العلماء، فقـد صار علمه سـببًا لجرأة عباد الله على معاصيه، ونفسـه الجاهلة مذلة مع ذلك تمنيه وترجيه، وتدعوه إلى أن يمن على الله بعلمه، وتخيل إليه نفسه أنه خير من كثير من عباد الله.

فكن أيها الطالب من الفريق الأول، واحذر أن تكون من الفريق الثـاني، فكم من مسـوف عاجله الأجل قبل التوبـة فخسر، وإياك ثم إياك أن تكون من الفريق الثالث فتهلك هلاكًا لا يرجى معه فلاحك ولا ينتظر صلاحك)[2].

- *ومن صور التكاثر في طلب العلم والمباهاة فيه التكاثر بالمسائل وتفريعهـا وتوليدهـا وافتراضها والانشـغال بالأقوال الشـاذة عن المهم من العلوم في التفسير والعقيدة والفقه والحديث.*

---

(١) لم أقف عليه في كتب الحديث المعروفة، وإن كان له شاهد في مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٦٤١) عـن عـلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي ﷺ جلوسًـا وهو نائم، فذكرنا الدجال، فاسـتيقظ محمرًا وجهه، فقال: «**غير الدجال أخاف عليكم عندي من الدجال: أئمة مضلون**».

(٢) بداية الهداية: المقدمة ص١، ٢.

- *ومن التكاثر في العلم ولا سيما في علم الحديث التكلف في كثرة التخريجات، وذكر الطرق لحديث صحيح، جاء مخرجًا في الصحيحين أو أحدهما.*

ومن لطيف ما ورد في هذا المعنى ما أخرجه ابن عبدالبر رحمه الله في جامعه عن حمزة الكناني رحمه الله قال: (خرجت حديثًا واحدًا عن النبي ﷺ من مئتي طريق أو من نحومئتي طريق - شك الراوي - قال: فداخلني من ذلك من الفرح غير قليل، وأعجبت بذلك، قال: فرأيت ليلة من الليالي يحيى بن معين في المنام فقلت له: يا أبا زكريا! خرجت حديثًا واحدًا عن النبي ﷺ من مئتي طريق، قال: فسكت عني ساعة ثم قال: أخشى أن يدخل هذا تحت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[1].

وقد ساق الشاطبي رحمه الله هذه الحكاية في الموافقات، وعقب عليها بقوله: (وهو صحيح في الاعتبار؛ لأن تخريجه من طرق يسيرة كاف في المقصود منه، فصار الزائد على ذلك فضلًا)[2].

وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (أن قومًا أكثروا سماع الحديث، ولم يكن مقصدهم صحيحًا، ولا أرادوا معرفة الصحيح من غيره بجمع الطرق، وإنما مرادهم العوالي والغرائب، فطافوا

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٠٢٣)، ٢/ ٢٥٩.
(٢) الموافقات ١/ ١١٤.

البلدان، ليقول أحدهم: لقيت فلانًا، ولي من الأسانيد ما ليس لغيري. وعندي أحاديث ليست عند غيري، وهذا كله من الإخلاص بمعزل، وإنما مقصدهم الرئاسة، والمباهاة، ولذلك يتبعون شاذ الحديث وغريبه)[1].

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينكر على الذي يطلب الأسانيد الغريبة، التي أخطأ فيها الرواة، ويستكثر من ذلك، وقال: يجيئون بثلاثين إسنادًا أو نحو ذلك، ما أقل العلم عندهم، يعني يضيعون الوقت في سماع الأخطاء التي أخطأ فيها الرواة[2].

وقيل ليحيى بن معين رحمه الله تعالى: لماذا لا تسمع بعض الأحاديث الغرائب، قال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يعني أن تستكثروا من الأشياء التي لا منفعة فيها، ولا تأثير فيها، ولا رجاء من ورائها[3].

وقال ابن قتيبة رحمه الله تعالى في غريب الحديث: (ونعوذ بالله من حيرة الجهل وفتنة العلم وإفراط التعمق، وأن يشغلنا التكاثر بالعلم عن التفقه فيه، ويقطعنا ما وضعه الله عنا عما كلفنا فيه)[4].

---

(١) تلبيس إبليس ص١٠٤، ١٠٥.
(٢) انظر أرشيف ملتقى أهل الحديث ٣/ ١٩٦.
(٣) انظر أرشيف ملتقى أهل الحديث ٣/ ١٩٦.
(٤) غريب الحديث ١/ ١٤٧.

وصدق ابن قتيبة رحمه الله تعالى، فكم رأينا من ينشغل بملح العلم وفروعه، التي لم يوجب الله علينا تعلمها عما كلفنا به من العلوم العينية، التي لا يسع أحد جهلها: كأحكام الوضوء والطهارة والصلاة والصيام وغير ذلك من فروض العين.

- *ومن صور التكاثر بالعلم ما يحرص عليه بعض المنتسبين إلى علم الحديث والقرآن من الحصول على الإجازات في رواية الحديث أو في بعض القراءات، والتكاثر والتفاخر بها. والله أعلم بما في القلوب.*

- *ومن صور التكاثر بالعلم ما يقع فيه بعض القراء وأئمة المساجد من التكلف والتنطع في ترتيل القرآن في الصلوات الجهرية، ولا سيما في صلاة التراويح والقيام في رمضان، والتكاثر في تنويع الأصوات وتمطيطها ورفعها.* وكذلك التكاثر في دعاء القنوت أو عند ختم القرآن برفع الأصوات وتنوع الدعاء، والإتيان بدعوات مخترعة، لا يخلو بعضها من مخالفات، وترك الجوامع من الأدعية النبوية الصحيحة، وتكلف البكاء، ورفع الصوت في ذلك. وإطالة الدعاء.

ولا يخفى ما في ذلك من الاعتداء في الدعاء والمكاثرة به، وقد قال الله ﷻ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]،

وقد يكون في ذلك إرضاء المصلين وجذبهم للصلاة خلفهم، وكل هذا لا يغني عند الله ﷻ حيث لا يبقى إلا العمل الصالح الذي يكون صاحبه مخلصًا لله ﷻ متبعًا للرسول ﷺ، ومثل هذه المكاثرة في القراءات والأدعية قد ينقصها الإخلاص والمتابعة والله أعلم بمن اتقى.

- *ومن صور التكاثر بالعلم المكاثرة بأخذ الأموال على تسجيل محاضرة أو دروس أو قراءة قرآن في صلاة التراويح والقيام وادعاء حفظ حقوقها لمحل التسجيل أو للقارئ والمحاضر.*

ولا يخفى ما في هذا الصنيع من الجشع وطلب الدنيا بالدين، وقد مر بنا قوله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[1]، كما مر بنا قوله ﷺ: «**أن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال**»[2].

سادسًا: التكاثر في المأكولات والمشروبات

لقد بلغ الترف في المأكولات والمشروبات والمكاثرة فيها مبلغًا لم يسبق له نظير في الأزمنة السابقة، وألفت في فنون الطبخ الكتب والمجلات، وأنشئت المواقع الإلكترونية، وتزاحمت المطاعم في الشوارع،

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

وامتلأت الأسواق والمحلات بكم هائل من المطعوم والمشروب، وتسابق الناس إليها، وتنافسوا في ملأ بيوتهم منها، وتسابقوا إلى المطاعم يعبون منها كل ما لذ لهم من أنواع المشروبات والمأكولات بأنواعها المختلفة والكثيرة، حتى بلغ في بعض المطاعم ما يربو على خمسين صنفًا من الأكل والشرب في قائمة المطعم التي تقدم للمرتادين.

ونسينا في خضم هذا الكم من المأكول والمشروب قول الله ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ونسينا قوله سبحانه عن أصحاب الشمال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٥]، ونسينا قوله ﷺ: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(١)، وقوله ﷺ: «**المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»(٢).

وصدق الرسول ﷺ، فلقد رأينا الشرور والأمراض في زماننا اليوم في شكل لم يسبق له نظير، فقد ظهرت أمراض كثيرة: كالسكري

(١) الترمذي (٥٣٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح وصححه الألباني في الصحيحة: (٢٢٦٥).
(٢) صحيح البخاري (٥٣٩٦)، مسلم (٢٠٦٢).

وارتفاع الضغط والجلطات والسكتات والأورام الخبيثة، ويرجع أغلبها إلى كثرة الأكل وأنواعه واستيراده بعجره وبجره.

وقد انتشرت في الأزمنة الأخيرة عادة دخيلة على مجتمعات المسلمين، فيها من التكاثر والترف والإسراف في المآكل والمشارب الشيء الكبير، ألا وهي ما يسمى (بالبوفيهات المفتوحة)، التي غالبًا ما تقام في مناسبات الزواج والاحتفالات الكبيرة، وفيها مساوئ شرعية من أهمها:

١- أن هذه العادة عادة غربية بحتة، جاءت من أمم الكفر الذين لا هم إلا متاع الحياة الدنيا، ففيها من التشبه بالكفار ما لا يخفى على أحد. وقد صح عنه ﷺ قوله: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[1].

٢- وفيها من التكاثر والتباهي والتفاخر بكثرة المأكولات والمشروبات والإسراف فيها إلى حد كبير، يصل في بعض المناسبات إلى ما لا يقل عن خمسين صنفًا من الطعام، في الوقت الذي يعاني فيه كثير من المسلمين في بقاع الأرض من الجوع والتشريد والضنك في المعيشة، ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، فإن لم يكن هذا من التكاثر الذي حذرنا الله ﷻ منه بقوله ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فأين يكون التكاثر؟

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٠٣٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٠٩).

٣- فيها من البطر والمباهاة ما قد يصل بأهله إلى الكبر والترفع على الناس.

٤- تكليف صاحب الزواج وأهله ما لا يحتملون من الإنفاق على هذه (البوفيهات)، وقد يضطرهم إلى تحمل الديون، ليتكاثروا مع غيرهم، ويسايروهم، ولا يتخلفوا عنهم.

٥- الإخلال بآداب الضيافة والإكرام للضيوف القائم على خدمة الضيف وتقديم الطعام إليه، حيث إن الحاصل في مثل هذه الموائد أن الضيف يطلب منه أن يقوم إلى الطعام يخدم نفسه بنفسه، ويقف في طابور ماسك بصحنه، ولا يخفى ما في ذلك من الإهانة للضيف وليس الإكرام. قال الله ﷻ عن خليله إبراهيم ﷺ وإكرامه لضيوفه المكرمين: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦ - ٢٧].

٦- الأكل على المناضد (الطاولات) وهي (الخوان)، وهذه من عادة المترفين والمترفعين، وكان من هديه ﷺ أن يأكل على الأرض، ويكره الأكل على خوان، وقد ثبت ذلك في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات، وما أكل خبزًا مرققًا حتى مات)[1]، قال ابن حجر رحمه الله تعالى في

(١) البخاري (٦٤٥٠).

شرحه لهذا الخبر: (قال ابن بطال: تركه ﷺ الأكل على الخوان وأكل المرقق، إما هو لدفع طيبات الدنيا اختيارًا لطيبات الحياة الدائمة، والمال إنما يرغب فيه ليستعان به على الآخرة... وحاصله أن الخبر لا يدل على تفضيل الفقر على الغنى، بل يدل على فضل القناعة والكفاف وعدم التبسط في ملاذ الدنيا)[1].

وقال ابن بطال في شرحه للخبر: (أكل المرقق مباح، ولم يتجنب النبي ﷺ أكله إلا زهدًا في الدنيا، وتركًا للتنعم، وإيثارًا عند الله كما ترك كثيرًا مما كان مباحًا، وكذلك الأكل على الخوان مباح أيضًا)[2].

وجاء في شرح هذا الخبر في تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي: (قال التوربشتي: الخوان الذي يؤكل عليه معرب، والأكل عليه لم يزل من دأب المترفين وصنيع الجبارين، لئلا يفتقروا إلى التطأطئ عند الأكل، كذا في المرقاة)[3].

٧- فيه من الإسراف وتبذير المال وتبذير الطعام ورميه في أوعية النفايات بما لا يقره عقل ولا شرع.

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٨٠.
(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/ ٤٦٩.
(٣) تحفة الأحوذي ٥/ ٣٩٨.

٨- ومن مساوئها عدم الاجتماع على الطعام، فكل شخص يختص بصحنه وطعامه، لا يشاركه فيه الآخر، ولا يخفى ما في الأكل من طعام مشترك من الأنس واجتماع القلوب وحضور البركة، ما لا يكون في التفرق. وقد جاء في سنن أبي داود رحمه الله تعالى أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع، قال: «**لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله، يبارك لكم فيه**»[1].

سابعًا: التكاثر في اللباس والرياش والزينة

وهذا النوع من التكاثر من الوضوح والظهور مما لا يحتاج فيه الأمر إلى مزيد من القول والإثبات، بل إنه مما تميز به زماننا اليوم، وتنافس الناس فيه، وتكاثروا في أشكاله، وتفاخروا، هو ذلك التكاثر في أنواع الملبوسات والرياش - ثيابًا وعباءات وجلابيب وأحذية وغيرها، فتبارى الناس فيها كمًّا وكيفًا، فأصبحنا نرى العشرات من الثياب والعباءات والأحذية لشخص واحد ولموسم واحد - وما نبرئ أنفسنا - فلقد امتد هذا النوع من التكاثر إلى كثير من الدعاة وطلبة العلم، حتى إنه ذكر لي أن بعض أئمة المساجد يمتلكون الكثير من العباءات (البشوت) متعددة الأشكال، غالية الأسعار، يظهرون فيها للمصلين كل يوم في لون ونوع من هذه العباءات، أفليس هذا من التفاخر والتكاثر؟ في الوقت الذي يعاني بعض إخواننا المسلمين

(١) سنن أبي داود (٣٧٦٦) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٢٨).

المشردين من شح في اللباس، حتى لا يكاد يجد الواحد منهم ما يستر به جسمه، فضلًا أن يجد من اللباس ما يقيه البرد أو حر الشمس.

ولقد برز هذا النوع من التكاثر، وبلغ ذروته في أوساط النساء.

فنظرة سريعة تنظر فيها المرأة إلى نفسها وما في خزانتها من الثياب والأحذية بمختلف أنواعها وأشكالها ثريها وبشكل واضح وصارخ أنها تدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فكم من العشرات من الثياب والأحذية تملكها وبأثمان غالية، وكم من ثوب لبسته المرأة مرة واحدة، لم تلبسه بعد ذلك، لظهور موضات جديدة من الثياب، فتستحي أن تظهر بين جليساتها في ثوب قديم!!

وأصبح النساء بهذه المكاثرة والمفاخرة أسيرات لبيوت الأزياء العالمية الكافرة، حيث تلعب هذه البيوت بعقول النساء القاصرة، فأشغلوهن بهذه الموضات ومتابعتها والمكاثرة فيها.

هذا من جانب المكاثرة والتباهي، أما إذا جئنا إلى أشكال هذا اللباس، وما فيه من المخالفات الشرعية من ضيق وشفاف وشبه عار، فحدث ولا حرج، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في حديثه عن ظاهرة استعباد بيوت الأزياء للنساء:

(وهـذه التصورات المبهمـة الغامضة؛ وهذا العـرف الاجتماعي الذي ينبثق منها، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق.. لا ينحصر في تلك الصورة التي عرفتها الجاهليات القديمة، فنحن نشـهده اليوم بصـورة أوضح في الجاهليات الحديثة.. هذه العـادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشـديد في حياتهم، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفرًّا.. هذه الأزياء والمراسـم التي تفرض نفسـها عـلى الناس فرضًا، وتكلفهم أحيانًا ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسـد أخلاقهم وحياتهم، ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها.. أزيـاء الصباح، وأزياء بعـد الظهر، وأزياء المسـاء.. الأزياء القصيرة، والأزيـاء الضيقـة، والأزيـاء المضحكـة! وأنـواع الزينـة والتجميـل والتصفيـف... إلى آخـر هذا الاسـترقاق المذل.. من الـذي يصنعه؟ ومـن الـذي يقـف وراءه؟ تقف وراءه بيـوت الأزيـاء، وتقف وراءه شركات الإنتـاج! ويقـف وراءه المرابـون في بيوت المـال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات، ليأخذوا هم حصيلة كدها! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها، ليحكموها!)[1].

(١) في ظـلال القـرآن ٣/ ١٥٨، عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... الآية﴾ [الأنعام: ١٣٧].

ثامنًا: التكاثر في اقتناء أجهزة التقنية المعاصرة من حواسب وأجهزة اتصالات وقنوات:

المتابع لهذا النوع من التكاثر يجده واضحًا وضوح الشمس، حيث أصبح منتشرًا في كثير من أوساط الناس ولا سيما الشباب والنساء، فنجد مثلًا أن كثيرًا من الأشخاص يتباهى ويتكاثر مع غيره في كونه يمتلك أعدادًا من الحواسب (أجهزة الكمبيوتر) وأعدادًا من الجوالات: جوال للاتصال، وجوال عام، وجوال خاص، وجوال للتواصل وجوال لمتابعة الأخبار، أو كونه يقتني كثيرًا من القنوات، وكلما ظهر نوع جديد من هذه الأجهزة سارعوا في اقتنائها وترك القديم منها، وكل ذلك بأثمان غالية، ربما اشتراها بعض الناس بدين على ظهره!! أفليس هذا من التكاثر؟ وإذا أضيف إلى ذلك التكاثر. التكاثر في الانشغال بها وضياع الأوقات في متابعة ما فيها فيا لها من مصيبة!!

هذا إذا استخدمت هذه الأجهزة في المباح، فكيف إذا استخدمت هذه الأجهزة في سماع ورؤية الحرام والتكاثر في ذلك؟؟ إن الأمر جد خطير، وصدق الله العظيم ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

تاسعًا: التكاثر في ألعاب الأطفال ووسائل ترفيههم

اللعب عند الأطفال أمر لا ضير فيه، بل لا بد منه في حياتهم، وفوائده معروفة، وليس المقام مقام ذكر أهمية اللعب والمرح وفوائد ذلك للأطفال، فلذلك مقام آخر.

وإنما الحديث هنا عن المغالات وإنفاق الأموال الطائلة في توفير الألعاب للأطفال بشتى أنواعها المفيد منها والضار، وتلبية رغبة الطفل في كل ما يريد من الألعاب، ميلًا مع محبته والعاطفة نحوه، دون التمييز بين هذه الألعاب.

وقد أدى هذا إلى امتلاء البيوت من الألعاب، التي تكاثر الناس فيها لأطفالهم، فلعبوا فيها يومًا أو يومين، ثم هجروها إلى ألعاب جديدة، وهكذا حتى أرهق ذلك ميزانية كثير من البيوت بحجة الترفيه عن أطفالهم.

ومما يزيد الأمر خطورة ما ظهر في السنوات الأخيرة من أجهزة إلكترونية وفيديو في ألعاب الأطفال، وما تحمل من خطر كبير على عقيدة الطفل وأخلاقه ونفسيته وصحته[1]، دون أي مراقبة أو إشراف من الوالدين على ذلك، وأصبحت ترى الطفل وبيده ما يسمى بالأجهزة

(١) انظر هذه الأخطار في كتاب: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ للمؤلف.

الذكية من (آي فون) (وأي باد) دون رقيب أو حسيب، وأصبح التكاثر بين الأطفال فيها شيء ملاحظ، بل تكاثر فيها الآباء والأمهات لأطفالهم، وصدق الله العظيم ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

عاشرًا: التكاثر في الأسفار والحل والترحال

وهذا النوع من التكاثر ظاهر عند بعض الناس وإن كانوا قلة، فتراهم يتحدثون ويتفاخرون بكثرة أسفارهم وتنقلهم في البلدان، وقد يكون هذا لحاجة كالتجارة أو الدعوة، وقد يكون لغير حاجة، وإنما مجرد النزهة والسياحة. وقد يكون والعياذ بالله للبحث عن الحرام، وليس الحديث هنا عن سفر المعصية، فله فقرة مستقلة آتية إن شاء الله تعالى، وإنما الحديث هنا عن الأسفار المباحة أو كونها للدعوة أو التجارة، فلكم سمعنا من بعض الدعاة من يكاثر بأسفاره، ويعدد المدن والدول التي زارها والشخصيات التي قابلها، وقد يكون في ذلك مكاثرة، وكم سمعنا من بعض العوائل الذين بدأوا يسافرون للنزهة في بلاد الغرب أو الشرق الكافرة، وما فيها من المنكرات، من يتباهي في ذلك، ويكاثر غيره فيها، مما جعل بعض الناس أفرادًا أو عوائل يسعى للحاق بهؤلاء، فأرهقوا أنفسهم ماديًّا ونفسيًّا، ليكاثروا غيرهم في ذلك تحت ضغط النساء والأطفال، وقد يضطر قيِّم الأسرة إلى أن يحمل ظهره من الديون ليغطى نفقات السفر، أليس هذا من التكاثر؟

بلى والله، وصدق الله العظيم ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

حادي عشر: التكاثر في الكلام والخطب والمحاضرات والمقابلات الإعلامية

دعوة الناس إلى الله ﷻ بالخطبة والمحاضرة والمواعظ والدروس، أمر يتراوح بين الواجب والمستحب، وهو أمر محبوب إلى الله ﷻ، ولكن ينبغي الحذر من أن يتحول الأمر من كونه دعوة ونصح للناس إلى أن يمازجه شعور المتكاثر بالتباهي بكثرة الكلام، والتفاصح فيه، وتكراره، أو بالتباهي بكثرة الظهور في وسائل الإعلام المقروءة أو المسموع أو في شاشات القنوات، وحِرْصِ المكاثرين في ذلك في أن يكون أحدهم أكثر حضورًا من غيره في مثل هذه الوسائل الإعلامية.

وقد يصل الحال لبعض هؤلاء المتكاثرين إلى أن يخرج في وسائل إعلامية خبيثة تسعى لنشر الرذيلة والصد عن سبيل الله ﷻ، وقد يتنازل هذا المكاثر عن أمور شرعية، ليخرج في هذه القناة أو تلك.

ومما له علاقة بهذا النوع من التكاثر، تكاثر بعض الدعاة بما يكون له من المتابعين والمشاهدين له من الألوف المؤلفة أو الملايين المملينة، وأن يكون له اسمٌ لامعٌ عندهم.

وعلى كل حال فأمر القلوب علمها عند علام الغيوب «**إنما الأعمال بالنيات**»، وليس المقصود هنا أن تتهم أحدًا في نيته، وإنما

المقصود الحذر من هذا النوع من التكاثر، الذي قد يدخل منه الشيطان ليفسد الأعمال والقلوب.

ثاني عشر: التكاثر بالجهاد والغزو والابتلاء في سبيل الله ﷻ

الجهاد في سبيل الله ﷻ من أفضل الأعمال والعبادات عند الله ﷻ، وليس المقام مقام التدليل على ذلك، وإنما المقصود هنا الحرص على النية في هذه العبادة العظيمة بأن تكون خالصة لله ﷻ وعلى منهاج النبوة، ومن علامات الإخلاص في ذلك الحرص على إخفائه وعدم ذكره للناس إلا لمصلحة راجحة، وأما التكاثر فيه وترداد ذكره وذكر الأماكن والثغور التي تقلب فيها المجاهد، فيخشى على صاحبه من الرياء والمباهاة بذلك، وقد كان هذا هو دأب سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى، فلم يكونوا يتحدثون عن جهادهم، ولا عمَّا واجهوه من الزلازل والابتلاءات فيه، إلا لمصلحة راجحة في ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا شاب من الثنية، فلما رأيناه بأبصارنا قلنا له: لو أن هذا الشاب جعل شبابه ونشاطه وقوته في سبيل الله ﷻ، قال: فسمع مقالتنا رسول الله ﷺ فقال: «**وما سبيل الله إلا من قتل؟ من سعى على والديه ففي سبيل الله، ومن سعى على عياله ففي سبيل الله، ومن سعى**

على نفسه ليعفها ففي سبيل الله، ومن سعى على التكاثر فهو في سبيل الشيطان»[1].

وعن عبدالله عن عمرو قال: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو، فقال ﷺ: «**يا عبدالله بن عمرو إن قاتلت صابرًا محتسبًا بعثك الله صابرًا محتسبًا، وإن قاتلت مرائيًا مكاثرًا بعثك الله مرائيًا مكاثرًا**»[2].

قال في عون المعبود (قال الطيبي: التكاثر أي التباري في الكثرة والتباهي بها. وقال ابن الملك: قوله مكاثرًا أي مفاخرًا. وقيل: (هو أن يقول الرجل لغيره: أنا أكثر منك مالًا وعددًا، أي غزوت ليقال: إنك أكثر جيشًا وأشجع، أن ينادى عليك يوم القيامة إن هذا غزا فخرًا ورياء لا محتسبًا)[3].

قال ابن قتيبة في عيون الأخبار: (حاصر مسلمة حصنًا، فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله، ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء! فجاء رجل، فقال: استأذن لي على الأمير، فقال له:

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٩٨٩٢)، مصنف عبدالرزاق (٩٥٧٨).
(٢) أبو داود (٢٥٢١) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٤٣٤).
(٣) عون المعبود ٧/ ١٣٩.

أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثًا: ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك له، قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب[1].

وذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة أن ابن المبارك رحمه الله تعالى كان يضع اللثام على وجهه عند القتال لئلا يعرف، وقال أحمد: (ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له)[2].

ثالث عشر: التكاثر في فعل المحرم واقتراف الظلم ونشر الفساد

وهذا والعياذ بالله أسوأ أنواع التكاثر وأخطرها وأرذلها، فإذا كان التكاثر محرم وممقوت عند الله ﷻ في الأمور المباحة فكيف بالتكاثر والتباهي بفعل المحرمات ونشر الفساد؟ إنه أشد جرمًا وإثمًا وخطرًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملًا ثم يصبح**

(١) عيون الأخبار ٢٦٦.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ١١٥.

قد ستره ربه، فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه...»[1].

وقد يقول قائل: وهل أحد يكاثر ويباهي بمعاصيه وظلمه وإفساده؟ والجواب: نعم، ولا سيما في واقعنا المعاصر، وما ظهر فيه من وسائل الفساد وسهولة الوصول إلى المحرم وكثرة المظالم، حيث صادف هذا نفاقًا في القلب، أو ضعفًا في الإيمان، وقلة خوف من الله ﷻ، ونسيان للآخرة والحساب، وركونًا إلى الدنيا وزينتها الفانية، فنجم عن ذلك من يجاهر ويكاثر بمعاصيه، دون أدنى حياء أو خوف من الله ﷻ، أو حياء من الناس، والعياذ بالله ﷻ من ذلك.

ومن أمثلة هذا النوع من التكاثر:

١- التكاثر بفعل الحرام من فعل الفاحشة أو أكل الربا أو الرشوة والمال الحرام، حيث تجد هذا المكاثر بدلًا من أن يستتر بمعصيته أو يتوب منها، تراه يجاهر بها، ويكاثر فيها، ويرى أن ذلك حنكة وذكاء وشجاعة!!!

٢- التكاثر في الأسفار المحرمة إلى ديار الكفر والعهر والفساد، فتراه يعدد أسفاره ومغامراته، بل قد يأتي بالصور الفاضحة ليكاثر بها ويفاخر بها عند معارفه وأصدقائه، والعياذ بالله تعالى.

---

(١) البخاري (٦٠٦٩)، مسلم (٢٩٩٠).

٣- التكاثر بظلم العباد في أعراضهم وأموالهم وأنفسهم، ويعد هذا المكاثر صنيعه هذا حزمًا وشجاعة، فكم رأينا من يأكل أموال الناس بالباطل ويكاثر بذلك، ولا سيما أموال الأجراء والعمال والأيتام والوصايا.

وكم رأينا من يكاثر بوظائفه التي يأخذ عليها أجرًا، دون أن يقدم مقابل ذلك عملًا أو حضورًا لمقر العمل، وكم رأينا من يكاثر بانتداباته خارج مقر عمله، دون أن يذهب أو يسافر للمكان المنتدب إليه، ولا يحرك ذلك ساكنًا في قلبه.

٤- التكاثر بظلم الدعاة والمجاهدين، والتباهي بالوشاية بهم إلى الظلمة، الذين يتكاثرون بسجونهم وما فيها من ألوان الأذى والتعذيب النفسي والجسدي.

٥- تكاثر وسائل الإعلام المقروء منها والمشاهد والمسموع في نشر الرذيلة، والتسابق بين القنوات في نشر الفساد والصد عن سبيل الله ﷻ، والوقوف في وجه المصلحين والدعاة والمجاهدين، والتكاثر في الثلب منهم، واستعداء الظلمة عليهم، والتنافس في بث الشبهات والشهوات في صفوف الأمة.

أما حين نتجاوز المسلمين إلى أعدائهم الكفرة، فإنا نجد تنافسهم وتكاثرهم في إنتاج أسلحة الدمار الشامل، والتكاثر بضرب المسلمين بحجة ضرب الإرهاب ونشر السلام - زعموا - ويتصل بهذا نوع آخر من التكاثر، ألا وهو التكاثر والتباهي بالنفاق السياسي، وخداع الناس، والتلبيس عليهم، ويشترك معهم في هذا النوع من النفاق منافقو زماننا من أفراد وطوائف..[1].

(١) انظر كتاب ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ للمؤلف.